الاحتباس الحراري الكوني والحروب الإسرائيلية على لبنان

تعليم الأمل

. رانية المصري .

من شطآن لبنان الملوّثة بالتسرّب النفطي بعد حرب تموز ٢٠٠٦ (الصورة لمنال نادر، من شاطئ البحصة)

رانية المصري أستاذة مساعدة في قسم العلوم في جامعة البلمند (لبنان)، ومديرةُ برنامج الخطاب البيئي في معهد الدراسات البيئية في الجامعة نفسها. لها أبحاث ونشاطات كثيرة في مجال الدفاع عن الشعب العراقي، ومناهضةِ الاحتلال الصهيوني، وفضحِ دور الشركات الأميركية في تدمير الاقتصاد العراقي، وكشفِ الروابط بين الفقر والنزعة العسكرية والعنصرية في السياسة الأميركية الداخلية والخارجية. هذه المقالة ستكون بدايةَ سلسلةٍ من المقالات القصيرة المخصّصة لـ الآداب**، وتُعنى بترابط البيئةِ والاقتصادِ والاجتماعِ والسياسةِ في لبنان والعالم.**

«من الواضح أنّ هذا الفيلم الوثائقي أميركي في الأصل والرؤية.» هذا ما علّق به زميلٌ لي بعد أن عَرضتْ جامعةُ البلمند فيلمَ «حقيقة غير ملائمة» [An Inconvenient Truth] (٢٠٠٦) مطلعَ هذه السنة.(١) وتابَعَ يقول: «إنّ الأميركيين هم الذين تسبّبوا بمشكلة الاحتباس الحراري الكوني (global warming) هذه، فما الذي نستطيع فعلَه حيالَها في لبنان؟ نحن الضحايا، لا المرتكبون. والأهمّ أنّ لدينا ههُنا همومًا أكثرَ إلحاحًا وطلبًا للعلاج من قضية الاحتباس الحراري.»

أحدُ طلاّبي لم يصدّق الرسالةَ الإلحاحيةَ في الفيلم، ووَصَفَ معلوماته بأنّها «مُبالَغٌ فيها،» زاعمًا أنّ الفيلم يطالبنا أساسًا بالانتحار لأنّنا لا نستطيع أن نفعلَ شيئًا لمقاومة المشكلة.

إنّه الإنكارُ، فاليأسُ، إذن.

نعم، نحن هنا في لبنان نعاني، بالفعل، همومًا غيرَ الاحتباس الحراري والأزماتِ البيئيةِ المتعدّدة. فبالإضافة إلى مشاكلنا السياسية والاقتصادية الحادّة، مازال علينا أن نعالجَ ندوبَ حرب تموز ٢٠٠٦، الماديةَ والإنسانيةَ والبيئية. فبعد عشرة شهور على القصف الإسرائيلي لخزّانات الوقود التابعة لمعمل «الجيّة» الحراري، مازال النفطُ يتسرّب إلى الشواطئ اللبنانية، وما زالت تُكتشف بقعٌ جديدةٌ من النفط الصلْب، وما زال خطُّ الساحل ملوَّثًا. ومع أنّ وسائل الإعلام ركّزتْ على التسرّب النفطي، فذلك ليس إلاّ إحدى التّبعاتِ البيئيةِ الكبيرة المتعدّدة للحرب الإسرائيلية على لبنان. إذ بحسب «برنامج الأمم المتحدة للتنمية،» تسبّبتْ هذه الحربُ بكمياتٍ هائلةٍ من النفايات الصُّلبة: «لقد تشكّل ما يربو على ٣،٥ مليون متر مكعّب من النفايات الناجمة عن التدمير، المختلطةِ بنفايات المنازل.»(٢) وعند نهاية الحرب نَقَلَتْ أكثرُ من ٤٠٠ شاحنة يوميًّا، ولمدةٍ تتراوح بين ٦ ـ ٨ أسابيع، ملايينَ الأطنان من الأنقاض إلى مكبّاتٍ قديمةٍ أو مستحدثةٍ على عجل.(٣) ويقع المكبُّ الرئيسُ عند نقطة التقاء البحر المتوسّط بضاحية بيروت الجنوبية التي تعرّضتْ للقصف الشديد. وهكذا فإنّ الباطونَ والأنقاضَ والغبارَ، وكلَّ ما قد نَعْثر عليه في البيوت، لم تُرْمَ عند شاطئ البحر فحسب، بل ورُميتْ داخله أيضًا.

تُمْكن المحاججةُ بأنّ أعظمَ ندوب الحرب البيئية التي تؤثّر مباشرةً في حياة مئات الآلاف تتمثّل في مليونٍ ومئتيْ ألف قنبلة عُنقودية في جنوب لبنان، كانت إسرائيلُ قد رمت ٩٠٪ منها في الساعات الاثنتيْن والسبعين الأخيرة من حرب تموز ٢٠٠٦. وعلى الرغم من جهدٍ مكثّفٍ لإزالة الألغام الأرضية، فقد استغرقتْ إزالةُ أقلّ من ٢٪ من تلك القنابل العنقودية سبعةَ شهور. فلو افترضْنا أنّ نَزْعَ الـ ٩٨٪ المتبقّية منها سيكون على وتيرة إزالة الـ ٢٪ الأولى (وعلى افتراض أنّ كلَّ شيء آخر بقي على حاله، وهو افتراضٌ خاطئٌ دائمًا)، فإنّ الجنوب لن يتخلّص من القنابل العنقودية قبل مضيّ حوالى ٣٠ سنةً... هذا إذا نحّيْنا جانبًا عمليةَ إزالة الألغام الأرضية.(٤) الجدير ذكرُه أنّ هذه القنابل، إضافةً إلى تسبّبها بقتل المدنيين وإصابتهم بجروح، قد أُجْبِرت المزارعين في الجنوب على الوقوف بين خياريْن قاتليْن: إمّا المزيد من الفقر، وإمّا المخاطرة بأرواحهم والتعرّض للإصابات البالغة أثناء العمل في حقولهم. وقد يختار هؤلاء المزارعون خيارًا ثالثًا، هو أن يتركوا أراضيَهم وبيوتَهم وأحياءهم، باتجاه المدينة أو الخارج، فنكون إزاء هجرةٍ ريفيةٍ أو هجرةٍ جماعية أو ما شئتم من المصطلحات الأخرى، إذ النتيجةُ واحدةٌ في الأحوال جميعها: أرضٌ مُجْدِبةٌ، وقطاعٌ زراعيّ وطني ضعيفٌ، وسيادةٌ غذائيةٌ وطنية منقوصة، وتطهيرٌ إثنيٌّ محلّي.

يُضاف إلى الندوب المادية لهذه الحرب ضعفُ ثقتنا الأمنية بأنّ بلادنا لن تُقصفَ من جديد، وضعفُ طمأنينتنا إلى إعادة بناء بيوتنا، وشدّةُ قلقنا من أن تتحوّلَ هذه البيوتُ أنقاضًا مرّةً أخرى.

هنا أتذكّر أورليانا برايس، وهي أمٌّ لأربع فتيات أَخَذَهنّ زوجُها، المبشِّرُ الأورثوذكسيُّ، إلى الكونغو، وذلك في ملحمة باربارا كينغسولفر، **إنجيل پويْزِنوُودْ** (١٩٩٨)، حين قالت: «إنّ الوجع في أسرتي بدا عظيمًا بما يكفي لملءِ العالمِ بأسره.»(٥)

ربما هذا هو وضعُ لبنان أيضًا. وربما هذا هو وضعُ كثيرٍ من العائلات والبيوت في العالم أيضًا.

فإذا كان الأمرُ كذلك، فأين الفسحةُ المتبقّيةُ لامتصاصِ الأزمات البيئية والاستجابةِ لها؟

ولكنْ، أتُرانا مُجْبَرين على الخيار بين عبئنا المحليّ (وَجَع بيوتنا وعائلاتنا) والعبءِ الكوني البيئي المتمثّلِ في التغيير المُناخي

١ ـ يقدّم هذا الفيلمُ الوثائقي، الذي حاز أوسمةً عدّة، نظرةً عميقةً إلى الحملة المحمومة التي قادها آل غور، نائبُ الرئيس الأميركي الأسبق، من أجل وقف التقدّم القاتل للاحتباس الحراري على مستوى الكون، فيَفضح (أي الفيلم) الأساطيرَ والأضاليلَ المحيطةَ بتلك الحملة. لمزيدٍ من المعلومات عن الفيلم، راجع: www.aninconvenienttruth.co.uk

٢ ـ United Nations Development Programme, **Lebanon Rapid Environmental Assessment for Greening, Recovery, Reconstruction and Reform**, 2006. UNDP report prepared by ELARD, 2007, pp.7-49.

٣ ـ Reuters, "Lebanon's Environment Bears the Consequences of Conflict," February 8, 2007. Website: http://yalibnan.com/site/archives/2007/02/lebanons_enviro.php.

٤ ـ Daily World EU News, "Israel's Peres: Cluster Bombs a Mistake," January 31, 2007. Website: http://www.turks.us/article~story~20070131212833666.htm.

٥ ـ Barbara Kingsolver, **The Poisonwood Bible** (New York: HarperPerennial. 1998), p. 382.

لا يكفي أن نتعلّم آليّات نموّ الأشجار، بل أن نضفي على ذلك إحساسًا بالسحر والدهشة أمام قدرة بذرة على تحويل نفسها إلى شجرةٍ تخدش بطنَ السماء. (الصورة لرانية المصري، من منطقة مِشْمِش، عكّار)

(climate change) المفروضِ علينا من الخارج (هذا إذا قَبِلْنا بالأطروحة القائلة إنّ الاحتباسَ الحراري عبءٌ خارجيٌّ مفروضٌ علينا)؟ أَيَلْزَم أن نختارَ بين البيئة وبين أوضاعنا السياسية والاقتصادية المحلية المضطربة وغير الآمنة؟ نسأل السؤالَ من زاويةٍ أخرى: أننتظر حتى «يترتَّبَ» بيتُنا قبل أن نتفحّصَ آثارَ ما نفعله على الأرض؟ وإذا نحَّيْنا الردَّ الشكّاكَ المتشائم، وهو أنّ بيتَنا قد لا «يترتّب» أبدَ الدهر، فهل نَمْلكُ أصلاً ترَفَ الانتظار؟

والأهمّ، هل القضايا البيئية في بلدنا ـ أمحلّيةً كانت أمْ إقليميةً أمْ كونيةً ـ منفصلةٌ عن القضايا السياسية والاقتصادية؟ وإذا كان الاقتصاد هو إدارةَ (أو محاولةَ إدارة) الموارد الطبيعية؛ وإذا كانت العلاقاتُ بين السياسة والاقتصاد، على ما يُقرّ الجميعُ، شديدةً على أقلّ تقدير؛ فهل يُمْكن ـ وإنْ منطقيّاً أو مفاهيميّاً ـ فصلُ الاقتصادِ والسياسةِ عن الموارد الطبيعية، ومن ثم عن البيئة؟

(بالمناسبة، يذكّرني «خطابُ الانتظار» بثنائيةٍ خاطئةٍ أخرى تُرْبك مجتمعَنا منذ عقود: إنّها قضيةُ النساء أثناء حقبة النضال القومي. فلطالما أُخْبِرنا، نحن النّسويين والنّسويات، أنّ زمننا الآن ليس زمنَ الحديث عن العنف المنزلي ولا عن غياب حقوق المرأة على المستويَيْن الاجتماعي والمؤسّساتي، وأنّ علينا أن نركّز جهودَنا على تحرير أرضنا من الاحتلال، وعلى تحريرها من القمع الاقتصادي بعد ذلك؛ فحين تُحَلّ تلك القضايا الشائكةُ، على ما يُخْبروننا، فسنتعامل مع مسألةِ مساواةِ النساءِ بالرجال. لكنْ، مثلما يَتجاهل هذا المنطقُ أنّه لا يُمْكن تحريرُ مجتمعٍ نصفُ مواطنيه مقموعون، فإنّ تأجيلَ القضايا البيئية إلى المستقبل، أيْ حتى تُحَلَّ همومُنا السياسيةُ والاقتصادية، منطقٌ ساذجٌ هو الآخر).

ثمة بعدٌ إضافيٌّ في خطاب البيئة في لبنان، ألا وهو افتراضُ البراءة؛ ومؤدّاه أنّه «لا ذَنْبَ لنا في الاحتباس الحراري، فنحن إذن، غيرُ مسؤولين.» غير أنّ البيئة لا يهمُّها إنْ كنّا نحن الضالعين الأساسيين في الأزمة أمْ لا؛ إذ بالرغم من أنّ الولايات المتحدة هي (حاليّاً) المذْنِبُ الأكبر، فإنّ شعوبَ أفريقيا هي التي ستكون الضحيةَ الكبرى.

وعليه، فلو أنّنا في لبنان بَراءٌ فعلاً من الإسهام الكبير في الاحتباس الحراري الكوني، أفلسنا مسؤولين عن محاولة إدارة آثار هذا الاحتباس على بلدنا؟ فالحال أنّ الاحتباس المذكور ستكون له عواقبُ وخيمةٌ على مصادر المياه في هذه المنطقة التي

تعاني أصلاً شحّةً في المياه؛ بل إنّ «مستويات استهلاك الماء حاليّاً في لبنان لا يمكن تحمُّلُها في ضوء النموّ السكّاني، والتطوّر الصناعي، وتوسُّع الأراضي الزراعية المرويّة، وتصاعُدِ عملياتِ استخراج المياه الجوفية من دون ضوابط.»(١) هذا، ولم تمضِ إلاّ سنواتٌ قليلةٌ فحسب على تهديدات إسرائيل المتكرِّرة بشنّ حربٍ شاملةٍ على لبنان إنْ حاولَ جرَّ مياهٍ إضافيةٍ من منابع نهر الوزّاني اللبنانية، التي تَصبّ مباشرةً في نهر الحاصباني الذي يَعْبر الحدودَ مع فلسطين المحتلّة ويصبُّ في بحر الجليل.(٢)

أتذكّر كلماتِ أورليانا برايس من جديد: «أيّاً يكن حِمْلُكَ، فأَنْ تنأى بنفسِكَ عن قَدَرِ رجالٍ أقوى وَهْمٌ.»(٣)

أنْ نتوقّع أن تنتظرَ المشاكلُ البيئيةُ ـ الحاليةُ والقادمةُ ـ إلى حين يَخفُّ وجعُ بيوتنا وعائلاتنا وَهْمٌ هو أيضًا. لكنّ تعليقَ زميلي تَضمَّن ما يتعدّى الاعتقادَ المحتملَ بذلك الوهم؛ كان فيه ما هو أعمق: إحساسٌ بالعجز، إحساسٌ باليأس.

لعلّه، مع توسُّع معاناتنا لليأس، بِتْنا نتشرّبه وكأنّه حقيقةٌ واقعةٌ. ومن ثم لا تعود ثمة حاجةٌ بجسدنا إلى أن يحسّ بمثل ذلك الوجع حين نُدرك، لاشعوريّاً، أنّ الوضعَ لا يُمْكن تغييرُه، أنْ لا عملَ فعّالاً أو ممكنًا نستطيعه. عندها، يكون اليأسُ قد بَلَغَ ذروتَه.

لم يكن زميلي يقول إنّه لا يكترث للأمر. لم يكن يقول إنّنا لن نَشْعر بتبعاتِ الاحتباس الحراري الكوني في بيتنا الصغير هنا. كان يقول ما سَبَقَ أنْ قاله تلميذي: ليس ثمة ما نَفْعله في هذا الشأن؛ إذن، فلنواصِلِ اهتمامَنا بأمورٍ أخرى!

إزاء انتشار هذه الإجابات ـ الإنكار، والعجزُ، واليأس ـ ماذا ترانا فاعلين، نحن المربّين في مجال البيئة، والناشطين، والمواطنين الحريصين؟

إنّ ما تعلّمتُه في سنواتي الاثنتيْ عشرة من العمل التنظيمي وإلقاءِ الكلمات في المناسبات العامّة حول قضايا السلام والعدالة الاجتماعية في الولايات المتحدة، وما أعيد تعلُّمَه ههنا كأستاذةٍ لعلوم البيئة في لبنان، هو **أنّه لا يكفي أن نقدّم المعلومات**. لا يكفي أن نُدْلي بالمعلومات على شكلِ حقائقَ، وإحصائياتٍ، ومعارف.

بعد سنواتٍ من العمل التنظيمي أتذكّرُ تقريرًا يدّعي الإقناعَ سَبَقَ أن قدّمتُه في مدرستي الثانوية. كنتُ قد عارضتُ إخضاعَ الحيوانات للبحوث المِخْبرية خدمةً لمستحضرات التجميل؛ واستخدمتُ الصورَ والإحصائياتِ للتشديد على هدفي. فيما بعد سألتُ إحدى التلميذات عن رأيها:

ـ هل توافقينني الرأيَ على أنّ إخضاعَ الحيوانات للبحوث المِخْبرية، خدمةً لمستحضراتِ التجميل، عملٌ غيرُ أخلاقي؟

ـ نعم.

ـ إذن، هل ستغيِّرين شركةَ التجميل التي تشترين منها؟ وهل ستردّين أيَّ مستحضرِ تجميلٍ اشتريتِهِ من الشركات التي تُجْري البحوثَ المِخْبريةَ على الحيوانات؟ وهل ستشترين مستحضراتِكِ من شركاتِ تجميلٍ لا تستغلّ الحيوانات؟

ـ لا.

صُعِقْت:

ـ ولكنْ، لِمَ لا؟

هزّت كتفيْها وابتعدتْ. لقد تلقّتْ زميلتي المعلوماتِ، وأومأتْ برأسها موافقةً، لكنّها ـ ببساطة ـ لم تكترثْ.

أنا لا أريد أن يهزَّ طلاّبي في علم البيئة أكتافَهم ببساطة، وأن يبتعدوا عند نهاية المساق، بعد أن استمعوا إلى العلاقات والتفاعلات التي تتضمّنها أنظمتُنا البيئيةُ، وبعد أن تعرّفوا إلى السُّبُل المختلفة التي نؤثِّر من خلالها في كلِّ ما يحيط بنا. فإذا لم يبالوا بأنّ الأُسُودَ قد وُجِدتْ بيننا قبل آلاف الأعوام، فهل لن يبالوا بفقدان طيور معيّنةٍ في المستقبل تعيش بيننا اليومَ؟ هل سيدركون أنّنا قد نَخْسر اليومَ ما سبق أن خسرناه من قبل؟ بل الواقع أنّنا نَخْسر اليومَ أكثرَ بكثيرٍ مما خسرناه من قبل. وبحسب التقارير الأخيرة، فإنّ نصفَ الأنواع النباتية والحيوانية ستَنْقرض مع نهاية هذا القرن.(٤)

إذا عَلِمَ طلاّبي ذلك كلَّه، فهل سيعتبرونه أمرًا يعنيهم شخصيّاً؟ بكلمات أخرى، هل سيكترثون؟(٥)

ربما يخافون أن يكترثوا.

إذ لماذا يَسْتثمرون طاقتَهم الشعوريةَ في الاهتمام بأمرٍ ما، ثم يَسْتثمرون طاقاتٍ أكبرَ في تبديل تصرُّفاتهم، حين لا يجدي

---

١ ـ M. El Fadel, M. Zeinati, and D. Jamali, "Water Resources in Lebanon: Characterization, Water Balance, and Constraints," **Water Resources Development**, 2000, 16. 4, 615-638, p. 615.

٢ ـ Nicholas Blanford. "A Lebanese-Israeli Water Conflict Threatens to Boil Over," **Christian Science Monitor**, October 21, 2000. Available at: http://www.csmonitor.com/2002/1021/p08s01-wome.html.

٣ ـ Barbara Kingsolver, op.cit, p. 387.

٤ ـ Julia Whitty, "Animal Extinction - the greatest threat to mankind. By the end of the century half of all species will be extinct. Does that matter?" **The Independent**, April 30, 2007. Available at: http://news.independent.co.uk/environment/article2494659.ece.

٥ ـ هذا السؤال لا ينطبق على طلاّب علوم البيئة فقط، بل إنّه الصراع نفسُه الذي نواجهه حين نحاول إقناعَ أيٍّ كان بتغيير تصرُّفاته، سواءً لجهة مقاطعة منتوجات نستله، أو لتوقيعِ عريضةٍ، أو لرفع صوته ضدّ أيٍّ من السياسيين الإقطاعيين الطائفيين الكُثُر في هذا البلد، أو لمجرد محاولة فهم ما يجري في عالمنا ـ ولا أقصد بـ «عالمنا» حدودَ دولتنا الصغيرة، وإنّما العلاقاتِ والكائناتِ التي تتعدّاها، وتَشْمل فلسطينَ والعراقَ، وتصل إلى أفريقيا والأميركتيْن.

لا يكفي أن نَعلم أنّ الدببة القطبية تغرق، بل أن نشعر بالأسف، وننقلَ هذا الأسفَ إزاء حيواناتٍ مهدَّدةٍ أخرى أقلّ مهابةً وروعةً
(http://www.ec.gc.ca/EnviroZine/images/Issue57/BeaufortSea_1)

هذا التغييرُ نفعًا، وحين لا يؤْمنون بإمكانيةِ حدوثِ أيِّ تغييرٍ أصلاً؟

من أجل استنهاض الناس من حال الخمول إلى الحركة، أَيقنتُ أنّه سيكون من الضروري أن أتواصلَ معهم مستخدمةً الإحساسَ والعاطفة، أن أُشخصنَ الأمور، أن أَضخَّها جميعَها بإيمانٍ، إيمانٍ صادقٍ، بأنّ لدينا القدرةَ فعلاً على إحداثِ تغييرٍ إيجابيّ.

في الولايات المتحدة اعتمدتُ، من أجل نَبْع آمالي، على قراءةِ هواردْ زِنْ (Howard Zinn) للتـــاريخ، وقـــراءةِ المحـــرِّكينَ التاريخيّين. وشَيّدتُ أُسُسي الفكريةَ على الإدراك بأنّ التغييرَ الإيجابي في المجتمع نَبَعَ ويَنْبع من الناس، وأنّه حصيلةُ مطالبِ الناس أنفسِهم؛ ولا يَلْزم أن يكونَ المطالِبون بالتغيير أغلبيةً، بل يكفي أَن يكونوا أقليّةً منظَّمةً قويةَ الالتزام.

في لبنان أدركتُ أنّه لا يكفي أن أعطي طلاّبي المعلوماتِ في دروس العلوم البيئية. فالمعلومات ظلّت معلوماتٍ تضاف إلى كومة المعطيات التي يُمليها عليهم أساتذتُهم الآخرون. هل أريد لأخبار البيئة، ولفهم البيئة، أن تُكتسَبَ كما يُكْتسبُ أيُّ كتابٍ آخر على رفوف المعرفة، وأن تُقَسَّم إلى حقولٍ دراسيةٍ مختلفة كما تقسَّم الكُتب؟ هل نريد لأيِّ معلومةٍ عن مجتمعنا أن تقسَّم إلى تقسيماتٍ خاطئة؟

لا يكفي أن نَعْلَمَ أنّ الدِّبَبَةَ القُطْبية تَغْرق. علينا أن نتشرَّب تلك المعلومةَ، أن نَشْعرَ بالأسف، وأن ننقُلَ هذا الأسفَ إزاء حيواناتٍ مهدَّدةٍ أخرى، أقلَّ مهابةً وروعةً من الدِّبَبةِ القُطْبية. لا يكفي أن نتعلّم آليّاتِ نموِّ الأشجار وتعاقُبِ الغابات، بل ينبغي أن نُضْفيَ على ذلك إحساسًا بالسِّحر والدهشةِ أمام قدرةِ بذرةٍ في حجم ظفْرٍ على تحويلِ نفسها إلى شجرةٍ تَخْدشُ بطنَ السماء. علينا أنْ نُفْتَنَ بالطبيعة، وأن نتواضعَ أمامَها في الوقتِ نفسِه، وأن نسمحَ لهذه المشاعر بأن تَدْفَعَنا إلى التحرّك، لا إلى القلقِ أو اليأس.

ولكنْ كيف تفادي اليأس؟ كيف نتوقّع أن يتغيّر الناسُ، وبخاصةٍ الطلاّبُ، وأن ينخرطوا في عملٍ فرديٍّ أو جماعيٍّ ما من أجل تخفيفِ آثارنا الضارّة على هذه الأرض؟ ما العمل لدفع الناس، في لبنان تحديدًا، إلى التحرُّك؟ كيف يُعلَّم الأملُ إلى جيلٍ من الطلاب وُلِدَ في خضمِّ حربٍ أهليةٍ مديدة (١٩٧٥ ـ ١٩٩١)، وفي بلدٍ عانى اجتياحاتٍ وعملياتِ قصفٍ إسرائيليّةً بشكلٍ منتظم منذ العام ١٩٤٨، فضلاً عن احتلال إسرائيليٍّ دام ٢٢ عامًا (١٩٧٨ ـ ٢٠٠٠، وما زال مستمرّاً)؛ جيلٍ لطالما ترعرع في كنفِ والديْن فَقَدا الأملَ هما أيضًا بعد أن تلقَّيا سلسلةً من الهزائم الوطنية والقومية القاصمة؟

إنّ إحدى وسائل الإجابة عن تلك الأسئلة هي في اعتبار تاريخنا تاريخًا نضاليّاً، وفي التعلُّم من نجاحاتنا السابقة. فنظامُ التعليم العامّ في لبنان مثلاً (كما في الولايات المتحدة)، ومن المدرسة الابتدائية وصولاً إلى الجامعة، لم يكن عملاً من أعمال الخيْر الحكومية، ولا هِبَةً من السياسيين المحبِّين، وإنما جاء حصيلةَ مطالبِ الناس ومعاركهم وانتصاراتهم. وهذا ليس إلاّ مثالا واحدًا فقط. مثالٌ آخر هو نجاحُ سكّان شماليّ القاهرة عامَ ١٩٩٤ في

إغلاق مصنعيْ صَهْرٍ للرّصاص كانا يتسبّبان بالتلوُّث البيئي.[١]

إنّ تاريخَنا هنا، كما في كافة أرجاء العالم، مليءٌ بحكاياتِ أناسٍ ينظّمون أنفسَهم وغيرَهم، ويحاربون، ويُستشهدون أحيانًا، في سبيل التغيير الاجتماعي. بعضُ النضالات مُني بالهزيمة، وبعضُها تكلّل بالنجاح، وكثيرٌ منها مازال مستمرّاً. ومع ذلك، فإنّ انتصارًا صغيرًا واحدًا يَكْشف إمكانيةَ النصرِ الأكبر. وإنّ تغييرًا إيجابيّاً واحدًا، قاتَلَ الناسُ من أجله وانتصروا، يَكْشفُ إمكانيةَ التغيير الأشمل في المستقبل. ثم إنّ العمل الناشط أحيانًا لا يؤدّي مباشرةً إلى حدوث تغيير إيجابي، إلاّ أنّه يولّد موجةً صغيرةً، إذا التحمتْ بموجاتٍ صغيرةٍ من أنشطةٍ أخرى، تشكّل جميعُها التغييرَ الإيجابي المنشود.[٢]

أَيَعْرف تلاميذُنا تاريخَ النضال، هنا وهناك، حقَّ المعرفة؟

لا أعتقد ذلك.

غالبًا ما صَرَّحَ تلاميذي بأنّه لا يهمُّ ما يتعلّمونه لأنّهم يَشْعرون أنْ لا أملَ في خلقِ واقعٍ أفضل في لبنان. وإنّي لأَصْرفُ جزءًا مهمّاً من الفترة المخصّصةِ للنقاش في كلّ حصّةٍ دراسيةٍ للحديث عن قوة المجتمع. هذه النقاشات ليست استطراداتٍ خارجةً عن الموضوع، بل هي أمورٌ أساسيةٌ لرؤية التلاميذ إلى المستقبل، ولرغبتهم في التعلّم، والأهمُّ أنّها أساسيةٌ لموقعهم كمواطنين في المجتمع.

إنّ إدراكَ القوة التي نَمْلكها اليومَ يتطلّب إدراكَ تاريخ هذه القوة، وتاريخ الحركات الاجتماعية. ومن ثم يحتاج الأملُ إلى أن يتعزّز من خلال مَدِّه بالاحتمالات والإمكانياتِ المتاحة على المستويَيْن المحلّي والخارجي. علينا أن نمتلكَ الأملَ في ترتيب بيتنا الداخلي، وفي السعي إلى إصلاح المشكلة (المشاكل) الكونية الكبرى معًا. بكلامٍ آخر، علينا، هنا في لبنان، أن نمتلكَ أملاً راسخًا في حلِّ أوضاعنا السياسية والاقتصادية، وفي القدرة على إدارةِ مواردنا المائية بشكلٍ أفضل، والقدرةِ على إعادةِ تحريج أرضنا، وأداءِ دورٍ ما في الإدارةِ الكونية لأزماتنا البيئية. بل نحنُ لا نستطيع أن نختار، ولا ينبغي أن نُجْبَرَ على الاختيار: فالطموحاتُ الوطنيةُ والقوميةُ والعالميةُ مترابطة. وقد كتب باولو فريري (١٩٩٨) في كتابه **علم تدريس المقهورين**: «اليأس شكلٌ من أشكال الصمت، من إنكار العالم والهرب منه.»[٣] ونحن، كمؤمنين بضرورة التغيير الاجتماعي، لا يمكننا الهروب.

ماذا بعد ذلك؟ وما العمل؟ هل نَطْرح حلولاً صغيرةً لمشاكلَ كبيرة، أمْ نحاول على الأقلّ أن نواجه الأمورَ الكبرى نفسَها؟

لقد قام الفيلمُ الوثائقي «حقيقة غير ملائمة» بعملٍ جبّار لتفسير تبعاتِ الاحتباس الحراري الكوني، ومن ثم صَعَّبَ على المشاهدين أن يستخفّوا بالهوْل الكبير الذي يُحْدثه ذلك التغييرُ المناخي. غير أنّ الفيلم المذكور قَصَّرَ عن تقديم خيارات التغيير. «رَسْكِلْ [دوِّر]»،[٤] «غَيِّرْ لَمْبَتَكَ،» «قُدْ سيّارةً لا تستهلك الكثيرَ من الوقود.» فمثلما أنّ «التعاطف الحقيقي [مع المحتاجين] هو أكثرُ من رَمْي الشحّاذ بقطعةِ نقود، ويَرْقى إلى أن يرى أنّ بناءً يُنْتج شحّاذين يحتاج إلى إعادة بناء،» على ما يقول مارتن لوثر كِنْغ الابن (١٩٦٧)؛[٥] ومثلما أنّ السلام يحتاج إلى أكثر من مجرّد الدعوة إلى «التسوية» و«الحوار» بين شركاء غير متساوين؛ فإنّ التغيير البيئي يتطلّب أكثرَ من الرسكلة [إعادة التدوير] وقيادةِ المركّبات التي لا تستهلك كميةً ضخمةً من الوقود.

نحن في حاجةٍ إلى نموذج جديد، على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لا إلى ضِماداتٍ لنموذجٍ يخرِّب البيئة. نحتاج إلى إطارٍ جديد للتفكير. فعلى الصعيد الاجتماعي، فإنّ التفكير الذي دَفَعَنا إلى هذه الحال التي لا يُمْكن البقاءُ فيها، هذه الحالِ التي ازدادت فيها وتيرةُ انقراض الأنواع إلى ما بين ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ضعفِ الوتيرة الطبيعية،[٦] لا يُمْكن استخدامُه لإنقاذنا من هذا الوضع. وعلى الصعيد الاقتصادي، فما دمنا نؤْمن بنموذجٍ مبنيٍّ على مفهوم النموّ المادي اللامتناهي (وهذا في ذاته مستحيلٌ)، وما دمنا نعتقد أنّ هذا النموذج الرأسمالي هو خيارُنا الوحيد، فسنواصل الرضوخَ لمزيدٍ من التآكل لحقوقنا الاقتصادية والمعيشية. وعلى الصعيد السياسي، فما دمنا نعتبر أنفسَنا أفرادًا أبرياء نعيش ضمن نظام حكم نعاديه، لا أفرادًا يمتلكون مسؤولياتٍ (ووسائلَ) لتغيير هذا النظام (أو للإطاحةِ به؟)، فلن نحقّق المجتمعَ الذي نَحْلم فيه لأطفالنا قطّ.

إنّ الاكتفاء بالمطالبة بحلولٍ صغيرةٍ لمشاكل كبرى هو قبولٌ بالفشل. علينا أن نَطْرح أسئلةً أعمق، وعلى رأسها: كيف نتجاوز بنى القمع وننشئُ عالمًا جديدًا؟ وكيف نبني استراتيجيةً لتحقيق ذلك على المدى القريب، وعلى المدى البعيد؟

بيروت

---

١ ـ Inas Tawfiq, “Community Participation and Environmental Change: Mobilization in a Cairo Neighborhood,” **MERIP** (Middle East Report) 202, Winter 1996.

٢ ـ نظرًا إلى ضيق المجال المخصّص لهذا البحث، فقد اكتفيتُ بضربِ مثالَيْن فقط على النضال الإيجابي. فإذا كانت لديكم أمثلةٌ أخرى على نجاحات تمت في الهلال الخصيب أو العالم العربي الأوسع، فالرجاء أن تُشْرِكوني بها، وذلك بمراسلتي على العنوان الإلكتروني: rania.masri@balamand.edu.lb

٣ ـ Paulo Freire, **Pedagogy of the Oppressed**. Trans. Robert R. Barr (New York: Continuum International Publishing Group, 1994), p.73.

٤ ـ “An Inconvenient Truth” [Motion Picture], Davis Guggenheim (Director), Lawrence Bender Productions and Participant Productions (Producers), (New York: Paramount Classics, 2006).

٥ ـ Martin Luther King, Jr, "Beyond Vietnam: A Time to Break Silence," April 4, 1967. Riverside Church Speech, New York City. Website: http://www.hartford-hwp.com/archives/45a/058.html.

٦ ـ Julia Whitty, op. cit.